العقل الفلسفي في مواجهة العقل الغيبي

لا انتقال من الخرافة إلى الحقيقة إلا بفتح الأبواب للفلسفة

ثلاث مقالات عربية في الفلسفة، ننشرها هنا كاستهلال ودعوة إلى المساهمة في ملف أوسع نحضر له في "الجديد" لرصد حال الفلسفة في الثقافة العربية، وطبيعة تشاكلها مع العقل، وحيثيات حضورها ومدى تأثيرها في المنظومة المعرفية، إن عبر الجماعات والحلقات الفكرية المفترضة، أو في إطار الأكاديميا ومناهج التعليم، أو في تصورات الكتاب والمثقفين وعلماء الاجتماع العرب.

إن الغياب الفادح للفلسفة وأدوارها في الثقافة العربية، لهو سبب ونتيجة لانهيار العقلانية، وهيمنة الغيبيات على العقل الجمعي في ظل ضروب من الفوضى المجتمعية والفراغ الفكري المرعب الذي تسبب به انتشار الخطاب الغيبي وانفلات الجماعات الإسلاموية والمتأسلمة وسيطرة دعاواها على الجموع، وتكاثر مشاريعها العبثية في إعادة أسلمة المجتمعات، وهو ما أدى إلى ولادة التطرف الديني المعادي للذات والآخر من جهة.

ومن جهة ثانية تفاقم نوع من التدين يحضّ على استسلام العقل واستقالة الإرادة والتسليم بالأحوال المجتمعية المتدهورة في مجتمعات يحكمها تحالف التشدّد الديني والاستبداد، قاد في نهاية المطاف إلى انتفاضات وثورات تطالب بالحرية، وتعجز عن صوغ برامج سياسية وفكرية واجتماعية قادرة على تحقيق الانتقال من كهوف الظلام والاستبداد إلى دنيا النور والحرية، ومن فكر الخرافة إلى الفكر العلمي، ومن دولة الحزب الشمولي إلى الدولة المدنية.

* **قلم التحرير**

سؤال الفلسفة وهويّة الفيلسوف

في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر



أحمد برقاوي
كاتب من فلسطين

❏ لست في معرض سرد تعاريف الفلسفة التي تمتلئ بها كتب الفلسفة بالعربية وخاصة تلك التعليمية من قبيل مداخل الفلسفة المتنوعة. والتي غالبا ما تعود إلى أصلها اللغوي اليوناني وتسند موضوعاتها ومشكلاتها وهذا الرأي أو ذاك لجمهور الفلاسفة. أقول لست في معرض ذلك وإنما أتوقف عند التعاريف التي تنطوي على جدة وهي على أي حال ليست بالكثيرة.

وإني لأعتقد أن التوقف عند سؤال ما الفلسفة مظهر من مظاهر الإبداع، أو قل هو بداية البحث الفلسفي المبدع، والمدخل لإنجاب خصوصية التفلسف.

وليس بالضرورة أن يكون السؤال مباشرا ما الفلسفة حتى نحصل على جواب مباشر هو الآخر لدى الفيلسوف، بل إن فلسفة الفيلسوف هي دائماً جواب عن سؤال غير مباشر هو: ما الفلسفة؟

لنحصر اهتمامنا أولاً بالإجابة عن السؤال التالي: ما الفلسفة في بعض أنماط الخطاب الفلسفي العربي؟ لوعدنا إلى خرافة الميتافيزيقا لزكي محمود لوجدناه قد تبنّى وظيفة الفلسفة كما تراها الوضعية المنطقية. أي إن الفلسفة تحليل للألفاظ والعبارات وضرورتها تكمن في توضيح القضايا العلمية والعبارات الجارية في الحياة اليومية. ولما كانت الميتافيزيقا -كما يرى- الحكم على أشياء غير محسوسة وجب حذفها من دائرة المعارف الإنسانية "لأنها لا هي مزوّدة بأدوات المشاهدة التي تمكّنها من الحكم على الأشياء، ولا هي ارتضت لنفسها أن تسمع ما يقوله المؤهلون لذلك مكتفية بتوضيحه وفهمه".

إن عودة زكي نجيب محمود لتعريف الفلسفة على النحو الآنف الذكر وطرد الميتافيزيقا من الفلسفة هو بالنسبة إلى الفلسفة العربية أمر جديد. لكنه في كل الأحوال تضييق لموضوع الفلسفة ومهمتها. إن طرد الميتافيزيقا من دائرة الفلسفة لا يعني على الإطلاق ترك الأشياء كالإنسان والمجتمع والتاريخ واللغة والطبيعة إلى العلوم، لأن العلماء، وحدهم، بما لديهم من أدوات ومناهج للبحث، هم القادرون على الوصول بهذه المباحث إلى نتائج يمكن الاعتماد على صدقها.

إنّا في حالة كهذه لا نعلن موت الميتافيزيقا فحسب، وإنما الفلسفة أيضاً، بما هي ميتودولوجيا عامة من جهة وموضوعات مرتبطة بالوجود الإنساني من جهة أخرى، كما سنبيّن لاحقا.

إننا لنقف حيارى حيال الجوانية، أهي فلسفة أم عقيدة، أم أصول عقيدة، وفلسفة ثورة.

ففي التقديم يقول عثمان أمين "الجوانية اسم أطلقته منذ سنين على فلسفة اهتديت إليها بعد إطالة النظر في أمور النفس، ومتابعة التأمل في بطون الكتب، مع مداومة التعرض لتجربة الوقائع والمعاناة لشؤون الناس".

إذاً هي فلسفة، ولكن الفلسفة عند صاحب الجوانية ليست النقد المحكم والمغلق المحيط، إنما هي "عقيدة مفتوحة تأبى الركون إلى مذهب أو الوقوف عند واقع، وتتجه إلى المعنى والقصد من وراء اللفظ والوضع، وتنحو إلى الفهم والتعاطف لا إلى الحفظ والتقرير، وتدعو إلى العمل والبناء، مؤسسا على النظر الواعي وتلتفت إلى الإنسان في جوهره وروحه لا في مظهره وأعراضه، وتدرسه في حياته الداخلية لتنفذ إلى ما هو فيه أصيل، أعني في مشاعره ومنازعته، وفي أفكاره وهواجسه وفي أحلامه وأوهامه، وفي وقائعه وخيالاته، وفي حقائقه وأباطيله، وفي أحكامه واستدلالاته، وفي رشاده وضلاله".

> إني لأعتقد أن التوقف عند سؤال ما الفلسفة مظهر من مظاهر الإبداع، أو قل هو بداية البحث الفلسفي المبدع، والمدخل لإنجاب خصوصية التفلسف

الفلسفة عقيدة، أو إن شئت قل العقيدة والفلسفة أمر واحد، ولما كان الأمر على هذا النحو، فإنا أمام تعريف للفلسفة نشتقها من قول المؤلف ذاته. الفلسفة اتجاه إلى المعنى والقصد القابع وراء اللفظ وتسعى إلى الفهم والتعاطف، وتنظر في جوهر الإنسان أي إلى داخله، ويضيف الفيلسوف الجواني إلى هذا التعريف تعريفاً موضحاً شارحاً حين يقول "إنها عندي فلسفة وخير من هذا طريقة في التفلسف، تفلسف مفتوح على النفس وعلى الدنيا، فتعرض لنفحات السماء في كل لحظة".

الجوانية إذاً فلسفة تحاول أن ترى الأشخاص والأشياء رؤية روحية بمعنى أن تنظر إلى المخبر ولا تقف عند المظهر وأن تلتمس الباطن دون أن تقنع بالظاهر وأن تبحث عن الداخل بعد ملاحظة الخارج وأن تلتفت دائماً إلى المعنى وإلى الكيف وإلى القيمة وإلى الماهية وإلى الروح من وراء اللفظ والكم والمشاهدة والعرض والعيان.

ولأنها فلسفة روحية فمنهجها الرؤية الحدسية. الفلسفة بهذا المعنى ضرب من المعرفة التصوفية للروح في حقيقتها والكامنة خلف مظاهر الوجود.

من هنا نفهم عودة عثمان أمين الدائمة إلى الغزالي وبرغسون وياسبرز.

إني لأنظر إلى هذا الضرب من التفلسف على أنه نوع من الأدب الفلسفي أكثر منه فلسفة تعمل العقل والتفكير والاستدلالي في مشكلات حقيقية. إنها أقرب إلى تجربة المتصوف الذي يلغي حدوسه بنوع من الإيمان، بالتسامي والقدرة على التوحد بالإله. فالجوانية رؤية تختلط فيها العقائد الدينية مع النزعة الروحية مع التعبير الأدبي.

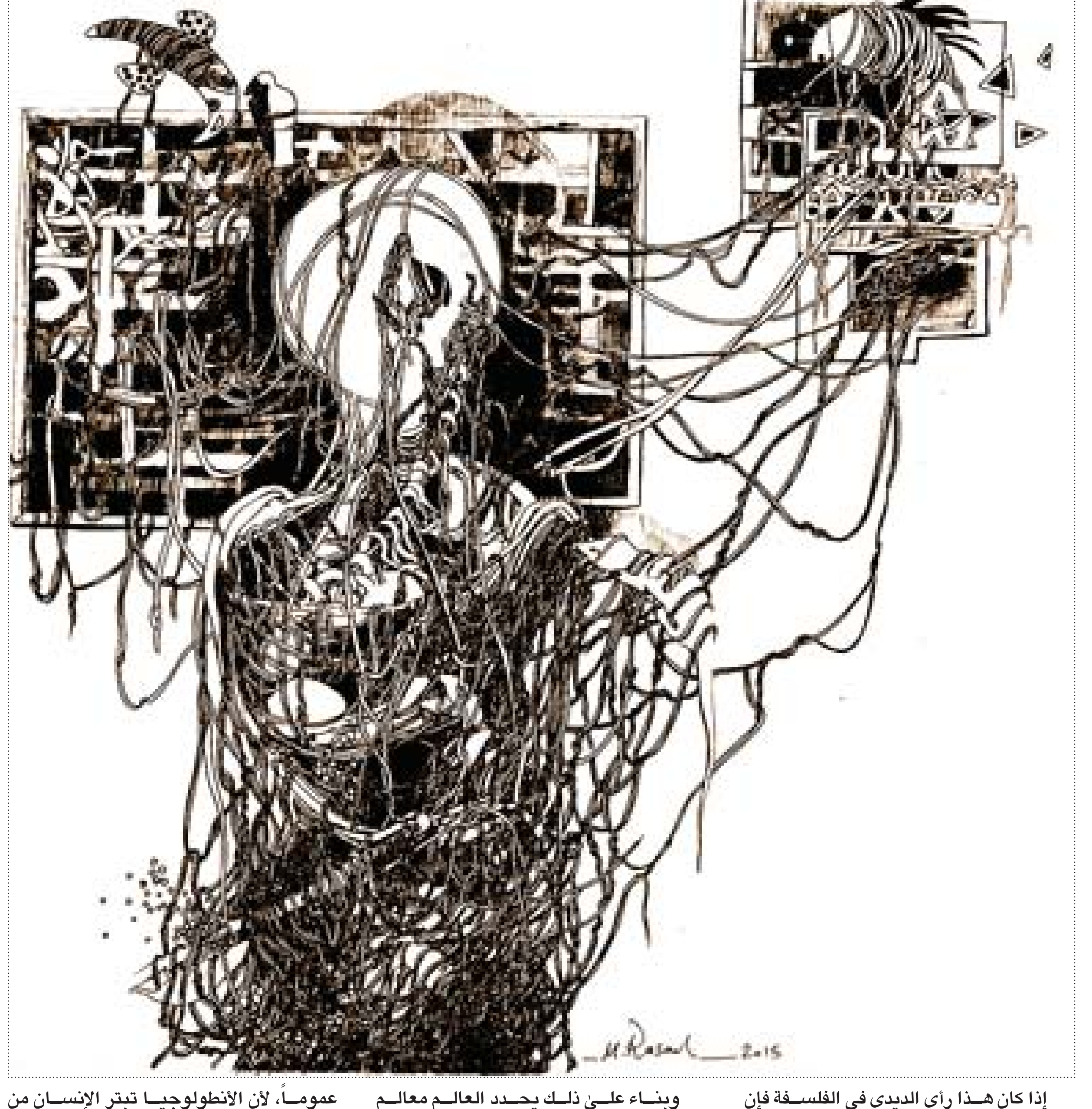
لكنها في النهاية تجربة أصيلة، إذ إنه من الفلاسفة القلائل الذين أدخلوا التراث الروحي- الديني الإسلامي في هذه الرؤية التي أرادها صاحبها فلسفية.

وفي رأي مشتغل بالفلسفة آخر هو عبدالفتاح الديدي، أن الفلسفة هي الميتافيزيقا، ولكن قبل أن يحددها بوصفها ميتافيزيقا ينقد النقد الموجه إليها من قبل الوضعية الماركسية والذين يسميهم نقّاد الفلسفة من الخارج ويقول بالحرف، إن هاتين الفلسفتين -إن صح وصفهما بهذه التسمية- تقومان بالاعتراض على الفلسفة كمهمة من مهام العقل والفهم وتقومان من ثمّ بإلغائها دون تعرف على قضاياها أو نظر في موضوعاتها.

ويرى في نقد الوضعية والماركسية للميتافيزيقا نقدا للفلسفة ككل طالما وحد صاحبنا بين الفلسفة والميتافيزيقا.

ولهذا تراه يقول بعد أن يبرز دوغمائية الماركسي "لذلك يعدّ الرفض الماركسي للفلسفة نوعاً من الفلسفة الغيبية".

وبعد هذا النقد الماركسي والوضعي يتساءل الدكتور الديدي ما هي الفلسفة أولا وما هي مهمتها؟ ويجيب: تقوم الفلسفة برأيه على فكرة نقض رأي برأي ومناقشة حجة بحجة. فإذا هاجم الميتافيزيقا مهاجم فهنا أمر طبيعي معقول لأنه في طبيعة الميتافيزيقا ذاتها كعلم.. ليس هناك إذاً غرابة في أن تقوم الفلسفة بالنقض والاجتياز لأن هذه العملية ذاتها هي الفلسفة وكانط الفيلسوف هو الذي علمنا أن نقد الميتافيزيقا هو ميتافيزيقا الميتافيزيقا.. فالفلسفة قائمة لا محالة بوصفها ميتافيزيقا تبحث في وضعية الأشياء وحقائق الموجودات.



لوحات: محمد عبدالرسول

إذا كان هذا رأي الديدي في الفلسفة فإن للماركسي العربي محمود أمين العالم رأي آخر.

سؤال ما الفلسفة عند العالم سؤال فلسفي، إنه جواب عن سؤال ما هي فلسفتي؟

التحديد العام للفلسفة، كما يرى العالم، غير ممكن دون تحديد دلالاتها النفسية والفكرية والاجتماعية والتاريخية. وعندما نسأل ما الفلسفة فإنها تعني هذا كله، ومن هنا يتحدّد معنى الفلسفة بتاريخيتها. وتاريخ الفلسفة ليس مجرّد تجميع للمدارس والنظريات الفلسفية المختلفة وتبويبها وتصنيفها، بل تفسير لهذا التاريخ، وإدراك لأحداثه الرئيسية ومعانيه الأساسية، وكشف عن قوانين وحركته التاريخية. ولها هناك أكثر من تاريخ الفلسفة كما يختلف تعريف الفلسفة باختلاف المدارس والمواقف الفلسفية، ويختلف تاريخ الفلسفة كذلك باختلاف الموقف الفلسفي من التاريخ نفسه.

ويضيف العالم، بعد أن يعرض للعلاقة بين العلم والفلسفة قائلا: ألا نستطيع أن نقول إذا أن الفلسفة تعبيرٍ بشري عن الصفات الأكثر عمومية وشمولاً وجوهرية سواء في الوجود الإنساني أو الوجود الطبيعي. ولكن ما معنى جوهري وشامل؟ يجيب العالم "فما هو جوهري يختلف باختلاف المفاهيم والمصالح والمواقف الاجتماعية والطبقية، فما هو جوهري وشامل عند فيلسوف معبّر عن مجتمع عبودي أو إقطاعي، غير ما هو جوهري وشامل عند فيلسوف معبّر عن مجتمع رأسمالي أو اشتراكي".

وبناء على ذلك يحدد العالم معالم الفلسفة "بأنها تعبير عن القسمات الأساسية والجوهرية في خبرة الإنسان إزاء وجوده الذاتي والبشري عامة، إزاء الوجود الطبيعي كذلك في غير عزلة عن حقائق العلم، وأوضاع المجتمع، وفي غير حياد منها.. إنها موقف من العلم والمجتمع والتاريخ أراد صاحبها ذلك أم لم يرد".

وهكذا نجد أن العالم يقدم فهما ماركسيا للفلسفة في حدود ماركسية الستينات من القرن الماضي، ذلك أن "بلاش فلسفة" أو ما هي الفلسفة إنما كتبه عام 1965 ونشر في كتاب "معارك فكرية"، الذي صدر في القاهرة عام 1970.

ومدار الفلسفة عند ماجد فخري هو عالم الإمكانات أي علم الممكن الذي هو "الوجود الذي لم يحصل ولكنه قابل للحصول"، إنه النظر في عالم الماهية الذي يمكن رده ببساطة إلى الإمكان. فتحديد مقوّمات الماهية عبارة عن تحديد مقومات عالم الإمكان. وأقسام هذا النظر المنطق وعلم الأخلاق والميتافيزيقا وعلم الظواهر الإدراكية وعلم السياسة المعياري.

ولكن لمراد وهبة رأي آخر، يقوم على إن الفلسفة كوسمولوجيا، فبعد أن يورد الشائع من أن الفلسفة أنطولوجيا، ويعرج على آراء أرسطو الذي تجاوز الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة، أي إلى العلم الإلهي، كما يقول، وموضوعه الوجود العام وليس الموجود والوجود العام هو الأنطولوجيا. ثم يتوقف عند أنطولوجيا هيدغر. إن صح التعبير يبرز في النهاية عقم الأيديولوجيا عموماً، لأن الأنطولوجيا تبتر الإنسان من الكون. وعلاقة الإنسان بالكون هي العلاقة الأساسية ذلك أن الإنسان لا يوجد في العالم وإنما يوجد في علاقة مع العالم، أو بالأدق مع الكون. وهذه العلاقة التي كانت مغموسة في الأساطير ظهرت في الحضارات الكبرى: وادي النيل، وادي الفرات، والهند والصين. في هذه المناطق حدثت ثورة في الإنتاج غيرت الأسلوب المادي والاجتماعي للوجود الإنساني. فأزمة الطعام في عصر الصيد دفعت الإنسان إلى إبداع التكنيك الزراعي. وكان من شأن ذلك تغيير علاقة الإنسان بالكون. إذ غدت رأسية وهذا يعني مجاوزة الإنسان للكون، أي تأنيسه. أي الوعي بوحدة الإنسانِ والكون وعندما لا يكون تأنيس الكون تاماً لا يكون الوعي تاماً، وتمام الوعي هو بتمام وحدة الإنسان مع الكون.

والواقع المادي الراهن يتمثل في" الفيزياء النووية وعلم الكون حديثاً" وهي بداية تحكم الإنسان في الكون، وغزو الفضاء الذي يستلزم تعود الإنسان على الحياة فيه. وهذا يُنبئ ببزوغٍ جديد من الإنسان يكون في مقدوره تمثلاً للكون ذي الأبعاد الأربعة الزمكانية التي تنبأ بها أينشتاين ومن شأن هذا التمثل أن يسمح للإنسان برؤية الأحداث قبل أن تقع فتزول غربته عن الكون.

ويخلص وهبه من كل هذا إلى القول "إن مستقبل الفلسفة أن تكون كوسمولوجيا وليس أنطولوجيا".

لقد تركت تلك التعريفات أو الرؤى للغة ومعناها دون تعليق، قاصدا أن أقدّم ما أراه فلسفة.

حال الفلسفة في حاضر العرب

الفلسفة ورشة ليقظة العقول


عامر عبد زيد الوائلي
كاتب وأكاديمي من العراق

❑ "ومن هنا ضرورة الفلسفة لكل شاب أو فتاة؛ أي: يجب أن ندرب عقولنا على التفكير السليم حتى نصل إلى الرأي السديد في شؤون الحياة ونعيش متسائلين مستطلعين عن قيمة نشاطنا".

سلامة موسى

■ أولا: رهانات الفلسفة العربية:

تعاني الفلسفة عربيا من عوائق متعددة في دورها والجدوى منها وإمكانية تحققها من عدمها، وأوَّل ما يواجهها حالة الإخفاق والتراجع، والبحث عن العلل الكامنة، فالأولى تأتي من داخل المنظومة وما تحكمها من موجِّهات من داخلها، كحال القانون الكامن في الظواهر الطبيعية؛ إذ هناك جملة من البواعث داخل هذا الحقل المعرفيّ، وهِي فاعلة فيه، فالبحث عن أسباب التراجع متأتِّية من داخلها، لكن هل هناك فلسفة عربيّة أو لا حتى نبحث عن لحظة تراجع؟ والإجابةُ عن هذا السؤال هي بحد ذاتها إشكاليّة، مثل إشكاليّة الفلسفة الإسلاميَّة، هل هي أصيلة أو مجرد عرض لأفكار اليونان؟ وهل هي عربيّة أو إسلاميّة؟ وهل هي انتهت مع الغزالي أو استمرت؟ فهذه الأسئلة كلّها أثارها الغرب في مقاربات ثلاث: المقاربة الاستشراقيَّة، والمقاربة الإشراقيَّة، والمقاربة السياسيَّة. وهذه المقاربات تحاول كشف الإشكاليَّة التي ظهرت داخلها الفلسفة العربية الإسلاميَّة؛ فإنَّ حوارَها مع الفلسفة اليونانيَّة واللاهوت المسيحي لم يزد في تواصلها ولكنَّه لم يُلْغِ أصالتَها.

> واقعنا الثقافي يدفعنا إلى أن نقدم مقترحات تتناسب مع ما يعيشه اليوم من راهن ضاغط في عالمنا في ما يتعلق بالعلاقة مع التراث والتأويل، أو ما يتعلق بالعلاقة بين النص وتجديد التشريع القانونيّ

وكذلك الفلسفة العربيَّة المعاصرة أو الفكر العربيّ المعاصر بتنوعاته في حقول العلوم الإنسانيَّة هو الآخر ليس مجرد نسخ أو كما يفترض، فانفتاحه على المستجدات لا يلغي الإشكاليَّة التي جاء استجابة لها، وهي ليست ذاتها في الفكر الغربيّ؛ لأنَّ الفكر الغربيّ هو الآخر وليد إشكاليّة، وقد يتجاوز الكثير مما نعيشه فهذا يساعد في التثاقف معه، على ألا تتحول الفلسفة العربيَّة إلى مجرد شرح للفلسفة الغربيَّة، فالتواصل الكونيّ يزيد من الحوار والتثاقف.

ولكنَّ واقعنا الثقافي يدفعنا إلى أن نقدِّمَ مقترحات تتناسب مع ما يعيشه اليوم من راهن ضاغط في عالمنا في ما يتعلق بالعلاقة مع التراث والتأويل، أو ما يتعلق بالعلاقة بين النص وتجديد التشريع القانونيّ ومباحث الأخلاق ورهانات الخطاب الديني، فكانت هناك ثلاثة خطابات مهيمنة في الواقع العربيّ، الأول: الماركسيّ، والثاني: القوميّ، والثالث: الإسلاميّ. وهذه الخطابات هيمنت عليها الأيديولوجيا في تعاملها مع الواقع من ناحية، ومع التراث من ناحية ثانية؛ فهي مشتبكة بالفهم الأيديولوجيّ، وهو فهم مختلف عن التيولوجيا التراثيَّة.

وإلى جانب هذه الاتجاهات الثلاثة هناك الكثير من المباحث الفلسفيَّة في مجال الأخلاق، والمعرفة، والعلم، والتجديد في علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، والسيمولوجيا، والتأويل؛ فهناك الكثير من البحوث القائمة على تأصيل المعارف بالفكر الغربيّ، ومحاولة توظيفها في الفكر الإسلاميّ، وهي معارف متباينة من حيث المنهج والرؤية ومن حيث الجودة أيضا.

ولكن تظهر أسئلة كثيرة تحاول تقييم التجربة الفلسفيَّة العربيَّة، منها: أسباب التراجع الحاصل في الفلسفة العربيَّة، فهل هناك وجود لفلسفة عربيَّة حديثة؟ ومنها مقاربات تحاول تأصيل الإشكاليَّة وارتباطها بالراهن العربيّ من خلال تحليل الأطاريح التي تقدمها تلك الدراسات الفلسفيَّة.

ومن الإجابات التي تقدمها الكثير من الدراسات، التي تَقدَّمَ بها مفكرون متعددون، يجمعون اليوم على أن العصر العربيّ الحديث تغيب عنه الفلسفة بمفهومها الذي أَلِفْنَاه في نتاجات اليونانيين كأرسطو وأفلاطون، أو في نتاجات الفلاسفة الغربيين أمثال ديكارت وكانط وغيرهما.

وهذا أمر طبيعيّ؛ فهذه الفلسفة وإنْ كانت تحاول وتتكامل مع الفلسفة المعاصرة ولكنَّها تختلف عنها من حيث الإشكاليَّة، وما يرتبط بها من المشاكل؛ فهي مختلفة عن الفلسفة اليونانيّة والإسلاميّة، ومختلفة مع الحديثة من حيث الموضوعات التي تقدمها. فهناك الكثير من التوظيف لما عند ديكارت في فكر الاتجاه الشكيّ العربيّ مثل طه حسين وغيره لكن إشكاليَّة طه مختلفة عن ديكارت، وهناك الكثير من التوظيف لمقاربة كانط في الفلسفة العربيّة المعاصرة في فهم الدين والعقل، كما ظهرت في فلسفة محمد عابد الجابري، ومحمد أركون ولكنَّها تختلف من حيث الإشكاليَّة عن إشكاليَّة كانط.

بمعنى أنَّ الفكر فيه الكثير من التواصل والتكامل ولكنَّه مختلف من حيث البيئة الثقافيَّة؛ فالثقافة العربيَّة الإسلاميَّة لها خصوصيتها ومشاكلها المتنوعة بعضها عاشها الغرب من قبل، فالتناص مع أفكاره يقدِّم العون لكن ليس بالضرورة تكون النتيجة ذاتها؛ لأنَّ القراءة مختلفة والتوظيف وما يثيره من تحديات هو الآخر مختلف تماما.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أنَّ الواقع الثقافيّ العربيّ وما يعانيه من مشاكل، وأخرى ثقافية وثالثة تربويَّة وغيرها جعلت الواقع الفلسفيّ من حيث الدرس الأكاديمي يعاني من أزمة؛ فهي مغيَّبة تماما عن المنهاج الدراسي في العديد من الدول، بالإضافة إلى أنها لا تكاد تحظى بمكانة في الجامعات التي افتتحت كليات للفلسفة فيها، وهيمنة خطاب الهوية القائم على اعتبار كل خطاب وافد لا يتناغم مع التراث، والسلطات التي تتخذ منه مرجعية في إدارة السلطة الثقافيَّة والسياسيَّة تجد أن الفلسفة ورجالها مجرد خطاب تغريبيّ يعبِّر عن اختراق ثقافيّ ودينيّ يهدد الهوية، وهو ما نجده في التراث، في موقف رجاله من الفلاسفة. فهذا في حقيقته ليس سوى تباين بين سلطات تقود الوعي وتكونه، وهي المركز، وأخرى تعدُّ هجينة غير مرحب بها. وأعتقد أنَّ الأمر جوهره صراع بين الطبقات المكونة للمجتمعات العربيَّة وسلطات مهيمنة، تريد أن تشرعن قيادتها عبر توظيف خطاب الهوية وأخرى تحاول أن تشارك بإدارة المجتمع من خلال البحث عن مشروعية في خطاب آخر، ولكنَّ السلطة التقليديَّة استطاعت أن تفرض تأويلها على المجتمع؛ مما جعل الفلسفة وأهلها يتحولون إلى خطاب طيفيّ يحاول أن يستغل حيز الحرية المتاح سواء في التدريس أو الكتابة من الباحث، وهو ضيق من أجل عرض الأفكار والاكتفاء بوظيفة التفسير والشارح للفلسفات الغربيّة المختلفة، من دون أن يبادروا لتأسيس فلسفاتهم الخاصة.

فالأمر ليس في الفلسفة الغربيَّة بل في القوى الاجتماعيَّة التي تريد معالجة الكثير من الأفكار، وتجد في الحداثة وفلسفتها المرجع في إعادة فهم الواقع، وتحليل المشروعية التراثيَّة التي يحاول الخطاب التقليدي أن يحتكرَها. وهنا تأتي الفلسفة فتقدِّمُ مرجعيات إلى تلك القوى التي تحاول أن يكون لها دور في إدارة المجتمع. وهكذا يمكن أن نفهم رغبة ابن طفيل حين قال الحقيقة واحدة ولكنَّ الطرق المؤدية إليها مختلفة، فهو تأويل يريد من خلاله الفيلسوف أن يشكل مرجعية في إدارة المجتمع ويكسر احتكار الفقيه. وضمن هذه الرؤية نرى مسعى المأمون حين جاء بأرسطو مترجما من أجل كسر احتكار الرأسمال الرمزيّ للمذاهب الكلاميَّة المتنازعة معه.

فالفلسفة هي الورشة التي تعدُّ عقولا لها تفكير معاصر يحاول استلهام ما هو جديد في الفكر؛ من أجل خلق أجيال من الباحثين يحاولون أن يكتسبوا المهارات العقليَّة في تحليل الفكر والواقع، من خلال تحليل المشاكل الراهنة والأطاريح المتنوعة التي تقدِّمُها مرجعيات متنوعة، كلٌّ منها يجتهد في تقديم معالجته. فهناك تيارات فلسفيَّة هي مرتبطة برهانات المجتمع تحاول أن تخرج الباحث الفلسفيّ من كونه معلما إلى دوره كمثقف، وصولا إلى كونه مفكرا. ولكي نحقِّقَ هذه الرؤية يجب ألا يكون هدفنا تعليم الفلسفة فقط؛ بل ينبغي أن تكون القضية التي يجب أن ندافع عنها وإشاعتها كمدخل للتنوير والفكر النقديّ؛ لأنَّ التعليم هو عملية متكاملة، تزود الباحث بالقدرة، والمهارة، والمعلومة، وفي النتيجة يصبح التعلم ليس تلقيا سلبيّا، بقدر ما هو توليد المهارة والقدرة، عبر تدريب العقل على التفكير،مما يولد مثقفا وعالما.

وكما يقول سالم يفوت "مسؤولية الفيلسوف هي في كل العصور. فلكل عصر مشكلاته وأزماته؛ مما يتطلّب تدخُّل الفيلسوف. أمَّا نوعية مشكلات عصرنا هذا فتتمثل في تهديد العولمة للهويات، وانتشار ثقافة الموت متمثلة في الإرهاب. فالفيلسوف ملزم اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن يعمل على نشر ثقافة الأمل والحياة، ثقافة التنوير والعقل من خلال تكريس ثقافة الاختلاف وتقبُّلِ الآخر المختلف، وتكريس ثقافة التسامح والحوار بين الثقافات والأديان والمذاهب ونبذ العُنف والقوة والغطرسة".

وتُشخَّصُ أزمةُ الفلسفة في العالم العربيّ بكونها أزمة حريات، وقد ربط الكثير من الباحثين بين ممارسة التفلسف وممارسة الحرية وبين تمرين النقد الفلسفيّ وتمرين حقوق الإنسان والمواطنة، والالتزام والمقاومة، وعدُّوا الفلسفة مدرسة للحرية ودعوا إلى الحق العربيّ في الفلسفة وإجراء حوارات بين الجهات وبين الثقافات والاستفادة من التجارب التعليميَّة الناجحة في الدول والثقافات المتقدمة.

معنى هذا أنَّ الفلسفةَ ليس ترفا بل هي حاجةٌ ضروريةٌ من أجل صيانة حياتنا، وجعلها أكثر رقيّا وحرية، واعمق في التحليل والفهم شرحا وتأويلا. وفي هذا أيضا يقول سلامة موسى "علينا أن نتفلسف ونرفع مشكلتنا الخاصة الفردية إلى مقام المشكلة العامة الاجتماعية، فنجعل من فلسفتنا كفاحا للخير والرقي، وبهذا فقط نستطيع أن نُمارس القداسة في معناها العصري".

■ ثانيا: كيف ندرس الفلسفة؟

تعليم الفلسفة يُفترض أن يقومَ على مقاربات الراهن الَّذي يعيشه الفيلسوف وقت كتابته للأفكار الفلسفيَّة فهي مرتبطة براهن يبين أهميةَ طرح المشكلة، فهو غير منقطع الصلة بالظروف المحيطة به؛ إذ كل فيلسوف يمارسُ التفكيرَ انطلاقا من راهنيَّة تمثل كشفا عن واقعنا الراهن الذي نحياه، أو كان الفيلسوف يحياه، والذي قاده إلى طرح المشكلة. ومن ثَمَّ لا بدَّ من تحليل المشاكل الفلسفيَّة التي تناولها في أعماله سواء كانت معرفيَّة، أم أخلاقيَّة، أم وجوديَّة، أم في مجالات الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الجزئيَّة، أم في مجال الفلسفة السياسية سواء كانت تتعلق بحقوق الانسان، ومصالح المواطنين في ظل أي دولة، أم في قضايا البيئة، وكما يقول الدكتور مصطفى النشار "علينا أن نفكر من الآن في تحويل الدرس الفلسفي بقدر المستطاع إلى الاهتمام بقضايا الفلسفة التطبيقية دون الإخلال بالمبدأ العام القائل إن الفلسفة في ذاتها نظر وتطبيق في آن واحد".

فالراهن وما يطرحه من مشاكل يُحرِّض الفيلسوفَ أو الباحث على أن ينخرط في مجال البحث والتقصي؛ ومن هنا وَجَبَ على من يريد أن يتعلم أو يُعلِّمَ الفلسفةَ أن يركِّزَ على الراهن وما يطرح من مشاكل أو موضوعات جديدة وما يرتبط به من أطروحات فلسفيَّة تحاول أنْ تُبيِّنَ موقفها من تلك العلوم وما تحويه من تأويلات.

الإصلاح الفلسفي بين مأزق الانغلاق ومطلب الانفتاح

عماد عبدالرازق
أكاديمي من مصر

❑ تمثل الفلسفة المحور الحقيقي لتقدم الأمم والشعوب، وتعتبر الأساس الذي تنهض عليه الحضارات. لذا يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت في كتابه "مبادئ الفلسفة" إن حضارة الأمة وثقافتها تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها. ونشير في هذا السياق إلى أن من أهم قضايا الإصلاح الفلسفي في الوطن العربي، قضية تدريس الفلسفة في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، والتي تمثل إشكالية حقيقية في واقعنا العربي المعاصر.

من الملفت للنظر والمثير للدهشة والعجب أن نرى تراجعا لتدريس الفلسفة في مدارسنا وجامعاتنا في الدول العربية، ومن مظاهر هذا التراجع تلك الحملة الشعواء والهجوم الشرس على الفلسفة وتدريسها، ومحاربتها على مختلف الأصعدة، والسبب الرئيس في ذلك كما نرى هو ذلك الانطباع الذي رسّخ في الأذهان على مر العصور بأن الفلسفة ليست لها أهمية، كما أن دراستها عديمة الجدوى والنفع، كما أنها ضد الدين ومتناقضة معه، وفي هذا المسار يوجد تيار ممنهج لمحاربة الفلسفة، والاهتمام بالعلوم الدينية على حساب الفلسفة، في الوقت ذاته يتم تحريم الفلسفة والحد من حضورها في بعض الجامعات العربية.

من هنا تعتبر قضية تدريس الفلسفة في الوطن العربي من القضايا المحورية والمهمة المطروحة على الساحة، والتي ترتكز على سؤال جوهري هل نحن بحاجة إلى تدريس الفلسفة أو دراستها في مناهجنا التعليمية؟

ومن الأهمية بمكان أن نضع في الاعتبار أن هذه القضية تكتنفها عدة إشكاليات يفرضها الواقع العربي المتأزم، كما أنه توجد عقبات وعوائق تسيطر على تدريس الفلسفة وتقف كسد منيع يعوق انتشارها وحضورها في واقعنا العربي المعاصر.

ولعل من أهم هذه العقبات والعوائق سيطرة العقل السلفي بما يمثله من جمود يعوق التفكير العقلي الحر، والوقوف الحرفي عند النص، ومصادرة الاجتهاد العقلي الذي يعتبر من المحرمات أو التابوهات، وهذه هي الطامة الكبرى التي أدت إلى تأخر الوطن العربي بوجه عام، والفلسفة بوجه خاص. أيضا من العقبات التي تعوق انتشار الفلسفة وانطلاقها إلى آفاق رحبة عملية النقل والتي ترفض كل تفلسف، وكل استخدام للعقل والتفكير، أيضا طغيان العلوم التطبيقية والتقنية على العلوم الإنسانية.

ورغم العقبات والعوائق التي تقف سدا منيعا أمام حضور الفلسفة وانتشارها، إلا أننا يجب أن نلفت الانتباه هنا إلى حقيقة مهمة وهي الوعي بأهمية ودور الفلسفة في المجتمعات الإنسانية بوجه عام والعربية بوجه خاص، إذا رجعنا إلى ابن رشد مثلا الذي يمثل رائدا من رواد التنوير العربي، والذي دعا في كل مؤلفاته إلى نهضة عقلية وتحرر عقلي عن طريق إعطاء الفلسفة مكانة كبيرة، عندما رأى أن الحكمة (الفلسفة) هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة. ويجب أن نوضح ونضع في الحسبان أن معركة تحرير عقول الأجيال العربية، لا تنفصم ولا تنفصل عن واقع إصلاح التعليم الديني في الوطن العربي، بمعنى أن هناك ارتباطا وثيقا وعلاقة لا تنفصم عراها بين واقع إصلاح التعليم في الوطن العربي، ودراسة الفلسفة.

بناء على ذلك نرى أن تدريس الفلسفة والاهتمام بها والعمل على انتشارها، تمثل ضرورة ملحة وحاجة ماسة لا يمكن إغفالها أو غض الطرف عنها، لأن تدريس الفلسفة يؤدي وظيفة محورية وهي تشكيل وتكوين العقل النقدي الذي لا يقف عند حدود الأشياء، بل يبحث عن حلول مبتكرة للقضايا الشائكة. إن مهمة تكوين هذا العقل ترجع بالدرجة الأولى إلى الفلسفة، لما تطرحه من عمق في التفكير، وفتح آفاق رحبة من الإبداع، كما تدعو الفلسفة إلى الحوار المثمر وفتح آفاق واسعة من التعددية والاختلاف الذي يثري الحوار الهادف.

ومن هذا المقام ندعو إلى تدريس الفلسفة حتى في مدارسنا الابتدائية، لمحاولة غرس التفكير النقدي في عقول النشء. ولمَ لا والفيلسوف يمثل ضمير عصره، ومرآته العاكسة لكل ظروفها وأحوالها، وعلى عاتقه تقع مهمة التنوير، وتطوير المجتمعات، لأن الفلسفة يظل عصرها معبرا عنه بالأفكار، كما قال هيغل.

ولعل من أهم عوامل الأمل في تفعيل النشاط الفلسفي في الوطن العربي الديمقراطية، التي تشكل عاملا محوريا وأساسيا في تفعيل الفلسفة على مستوى التعليم. لذا توجد علاقة وثيقة بين الديمقراطية والفلسفة، وليس هناك أوضح على تلك العلاقة من قول المفكر اللبناني نصيف نصار عندما قال إنه يمكن التفكير في العلاقات بين الفلسفة والديمقراطية انطلاقا من قضيتين مركزيتين هما أن الديمقراطية تحتاج إلى الفلسفة، والفلسفة تحتاج إلى الديمقراطية.

انطلاقا من كل ما سبق، سواء أكانت هناك عقبات أم عوامل تدعو إلى الأمل، فإننا بحاجة لإنعاش وتفعيل الفلسفة في جميع مراحلنا التعليمية في الوطن العربي، من أجل خلق جيل واع متحضر يملك أدوات من التفكير المبدع الذي سوف يعود على مجتمعاتنا العربية بالتطور وأن يلحق بالركب الحضاري، وأن يكون قادرا على حل المشكلات التي تواجه، لأننا عن طريق الفلسفة وتدريسها والعمل على انتشارها نستطيع التخلص من التقليد والإتباع، ونكون أكثر قدرة على التفكير الإبداعي الحر ومن هذا المنبر أدعو إلى دراسة الفلسفة والاهتمام بها والعمل على انتشارها، وتفعيل وجودها في مناهجنا التعليمية المختلفة من أجل غد مشرق، ومستقبل أفضل لوطننا العربي.

في النهاية يجب أن نشير إلى أن أزمة الفلسفة في العالم العربي هي أزمة الإنسان العربي، فالمجتمعات العربية يجب أن تتخلص من فكرة ضدية الفلسفة أو الضد العقلي، بمعنى الفلسفة الضدية التكفيرية على حد قول عالم الاجتماع خليل أحمد إن أزمة الفلسفة في العالم العربي تمثل محنة العقل العربي التكراري والتراثي، الذي يخاف من الانفتاح والتفكير. لذا يجب أن تدرّس الفلسفة بجميع أشكالها، ومن حق الأفراد في كل مكان أن يدرسوا بحرية الفلسفة، وأن يتولى تدريسها متخصصون متدربون، كما ينبغي ألا تخضع الفلسفة لاعتبارات اقتصادية أو سياسية أو أيديولوجية، كما ينبغي ربط الفلسفة بالواقع المهني والأكاديمي. ولو تم ذلك سوف يكون هناك جيل واعد قادر على التفكير النقدي الإبداعي، ونتخلص من الإتباع والتقليد.